

# ابن تيمية الحراني وآثاره الفكرية

بقلم

د. عرفات كرم ستوني

2013

بسم الله الرحمن الرحيم

## توطئة

ترك ابن تيمية الحراني<sup>1</sup> وراءه تراثا ثرا متنوعا، وأصبح هذا التراث الضخم المتنوع مجالا رحبا للباحثين في ميادين عدة، وقد انقسم الباحثون - قديما وحديثا- في ابن تيمية الحراني إلى صنفين: صنف اتهمه بالتضليل والتبديع والتكفير، وصنف آخر وصفه بشيخ الإسلام، ومجدد الإسلام، وقديما قال المقرئزي(ت845هـ) في ابن تيمية الحراني: " افترق الناس فيه فريقا، فريق يقتدي به، ويعول على أقواله، ويعمل برأيه، ويرى أنه شيخ الإسلام، وأجل حفاظ أهل الملة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضله ويزري عليه... ثم قال: وحسابه وحسابهم على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء"<sup>2</sup>.

ولن أناقش هنا هذه الإشكالية، لأنها لم تعالج قديما، ولن يعالجها أحد حديثا، بل ستبقى معلقة، لكنني سأحاول بقدر الاستطاع أن أبقى ملتزما بالمنهج العلمي في تناول تراثه الفكري، ومدى تأثيره على تاريخ تطور الفكر الإسلامي ومسيرته، ولا ننسى أن صنفا من الباحثين تناولوا ابن تيمية الحراني بمنهجية علمية منصفة، وقليل ما هم، ولما علم البعض أهمية ابن تيمية الحراني في مسيرة الفكر الإسلامي، حاولوا قراءة تراثه من جديد قراءة جدية نقدية، فاكتشف البعض أن ابن تيمية الحراني صوفي، فألف أحدهم رسالة أسماها (شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني متصوفا)، واكتشف آخرون أن ابن تيمية الحراني ليس كما يزعم أشياعه وأتباعه، فألف أحدهم رسالة سماها (ابن تيمية الحراني ليس سلفيا)، ولا ننسى أن أشياع التيار

---

<sup>1</sup> هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن أبي البركات بن عبد الله ابن تيمية الحراني، ولد (661هـ) بمدينة حران في شمال كردستان، وتوفي بقلعة دمشق سنة (728هـ)، ولمعرفة تفاصيل سيرته راجع هذه المصادر والمراجع: السيوطي: طبقات الحفاظ تحقيق: لجنة من العلماء (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ، 1983م) ص520. والذهبي: تذكرة الحفاظ (الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط4، 1390هـ، 1970م) ص1497.. وابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط. ت) 144/1. والشوكاني: البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د. ط. ت) 64/1. وابن كثير: البداية والنهاية تحقيق: علي شيري (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1408 هـ. 1988م) 141/14/7 وما بعدها، وابن العماد: شذرات الذهب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط. ت) 81/5 وما بعدها.

<sup>2</sup> المقرئزي، تقي الدين أبو العباس: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(بيروت، دار صادر، د.ت)

السلفي يعدونه مؤسس السلفية، وهكذا اختلف الناس فيه، ولا يزالون مختلفين، وسيبقى مختلفين إلى أن تقوم الساعة، وحينئذ يحكم الله بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق<sup>3</sup>.  
لا أحد يستطيع أن يتجاهل ابن تيمية الحراني، وهو يتناول مسيرة التطور الفكري الإسلامي، وخاصة في طور نشأة المدرسة الأشعرية وتطورها، وكذلك في طور انشقاق المدرسة الأشعرية إلى تيارين: أحدهما التيار التقليدي الأثري، حيث يمثلته المؤسسة الأولى أبو الحسن الأشعري، ومن جاء بعده كالباقلاني وابن فورك الأصبهاني وعبد القاهر الباقلاني والبيهقي وغيرهم، وثانيهما التيار الاعتزالي التأويلي، ويمثله الجويني وتلميذه الغزالي والشهرستاني والرازي والآمدني وغيرهم خلق كثير.

لقد كان من المتفق عليه في تلك الآونة أن المذهب الأشعري هو المذهب الحق الذي لا يختلف فيه اثنان، ولا يخالفه إلا ضال مضل،، يقول المقرئزي(ت 845هـ) وهو يتحدث عن

<sup>3</sup> قل في القديم من تعامل مع مشكلة تقويم أهل العلم بصورة موضوعية متزنة، فهو إما ناقد حاقد أو مدح ذابح، وكلا المسلكين مرفوض في المنهج العلمي، ولذلك نجد في مشكلة ابن تيمية هذه الحقيقة جلية، حيث ذهب طرف كابن حجر الهيتمي وغيره إلى وصفه بقوله: "عبد خذله الله وأضلّه وأعماه وأصمه وأذله... ويعتقد فيه أنه مبتدع ضالّ ومُضِلّ جاهلّ غال عامله الله بعدله، وأجازنا من مثل طريقتة وعقيدته وفعله أمين"، وهذا الوصف الخطير لابن تيمية ينبىء عن تحامل وحقد وعداوة، وكان الأولى تخطّته بدل تضليله وتكفيره، وكان لا بد من رد فعل من قبل محبيه، خذ مثلا: ابن عبد الهادي في كتابه العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، والبزار في الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، وناصر الدين الدمشقي في كتابه الرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية (شيخ الإسلام) كافر، والكرمي في الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ومثل هذه الرسائل والمصنفات التي تحمل الطابع الهجومى الظلامى العدوانى اللاذع لا قيمة لها في الدراسات العلمية، بل ستبقى غير مفيدة في مجالات البحث العلمى، أما الذين تناولوا الموضوع بأمانة ودقة وإنصاف وعلمية فهم خلدوا أنفسهم للتاريخ، ومن هؤلاء ابن دقيق العيد و ابن حجر العسقلاني والذهبي وجلال الدين السيوطي وملا علي القاري الحنفي والشوكاني ومحمد عبد البر السبكي الشافعي الذي قال كلمة أصبح قاعدة في تصوري لكل من يتعامل مع ابن تيمية الحراني، حيث قال : "والله ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به"، والغريب أن بعض المستشرقين كانوا أنصف بحق ابن تيمية، ومن هؤلاء جولد زيهر وكارل بروكلمان وهنرى كوربان وبوزينا ومن أشهرهم الفرنسي هنري لاوست وهو من كبار المختصين في ابن تيمية، ولقد حاول نعمان الألوسي محاكمة ابن تيمية وابن حجر الهيتمي في جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ، فبين تطرف الأخير وغلوه ومعاداته وحقده الشديد على ابن تيمية، واتهامه بما لم يقله، وهو بريء، ولو كان الأمر مقتصرًا على التخطئة لكان هينا، ولكن المشكلة هي القفز إلى مرحلة توزيع الأحكام القاسية والخطيرة كالتى ذكرها الهيتمي.

مذهب الأشعري وانتشاره: " بحيث نسي غيره من المذاهب، وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه " .<sup>4</sup>

في هذه الظروف ظهر ابن تيمية الحراني ليواجه المدرسة الأشعرية، ويبين لأتباعها وأشياعها أن هذه المدرسة لا تمثل مذهب أهل السنة والجماعة أو بعبارة أدق لا تمثل مذهب السلف، وخاصة في الحقل العقدي، حيث بين لهم أن التأويل الذي تلجأون إليه في كتبكم ورسائلكم لصفات الله تعالى، وخاصة في الصفات الخبرية، مرفوض، رفضه مؤسس مذهبكم أبو الحسن الأشعري ومن بعده كالباقلاني لأنه من أعظم أعمدة المذهب، وأن فكرة التأويل التي تذوبون عنها جاءت من المتأخرين كالجويني والغزالي والأمدي والرازي وغيرهم، لذا لا بد من العودة إلى الأصل الأصيل في معرفة وفهم الصفات الإلهية، وخاصة الخبرية منها، هذه الخطوة الجريئة سببت لابن تيمية الحراني مشاكل ومخاطر، أوقعته في محاكم فقهاء السلاطين، وانتهى الأمر إلى سجن قلعة دمشق، وبقي فيه حتى فارق الحياة في سنة (728هـ).

### ابن تيمية وعلم الكلام

أسس المعتزلة علم الكلام لكي يزودوا عن حياض الدين، وكان ذلك بداية جديدة في تأسيسه، ولم يكن هذا العلم مقبولاً عند علماء السلف، فقد أنكره الأئمة، وخاصة أحمد بن حنبل، كان صراع المعتزلة في البداية صراعاً خارجياً مع أهل الأديان والمذاهب، ولم يكن صراعاً داخلياً، لكنه بمرور الزمن أفرز هذا العلم بصراعاته الخارجية منهجياً فكرياً مغايراً ومناقضاً لما كان عليه السلف الصالح، لذلك وقف علماء السلف موقف المعاند والمعادى لهذا الفن، ولقد بدا جلياً أن علم الكلام بضاعة معتزلية محضة، وليس لها علاقة وصلية بمنهج السلف السابقين، ولعل أفضل مثال على ذلك، مشكلة خلق القرآن الكريم، والتي هي النقطة الأولى التي انطلقت شرارة النزاع والصراع بين أشياع أحمد بن حنبل والمعتزلة، فالمعتزلة أصروا على أن كلام الله مخلوق<sup>5</sup>، لكي يردوا بذلك مزاعم المسيحيين في قولهم أن عيسى (عليه السلام) كلمة الله، وكلمة الله غير مخلوقة، وعليه، فإن عيسى هو الله، لأنه كلمة الله، فلو قلنا - وهذا قول المعتزلة - إن

<sup>4</sup> المقرئزي: الخطط 2/359.

<sup>5</sup> إنما سمي علم الكلام علم الكلام لأنه كما يقول الإيجي: " بإزاء المنطق للفلاسفة، أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم ". انظر الإيجي: كتاب المواقف في علم الكلام تحقيق: عبد الرحمن عميرة (بيروت، دار الجيل، ط1، 1997م) 46/1.

القرآن كلام الله مخلوق، لأثبتنا بالدليل القاطع أن عيسى(عليه السلام) مخلوق، لأنه لما كان القرآن - وهو كلام الله - مخلوقا، فإن عيسى (عليه السلام) أولى بالمخلوقية، ولنفيها ألوهية عيسى (عليه السلام) كما يزعم المسيحيون، لكن أحمد بن حنبل لم يبال بنظرية المعتزلة، فأصر على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأن الكلام صفة إلهية، وليست مخلوقة، بل هي من الصفات الذاتية، ولو قلنا إن كلام الله مخلوق، لأصبح الخالق مخلوقا لغيره، لأن مخلوقية جزء من الكل يقتضي مخلوقية كليهما، أو يكون الإله محلا للحوادث، وهذا محال.

ومن خلال هذا الصراع بين المعتزلة وأحمد بن حنبل تتضح حقيقة دور المعتزلة في التصدي للأديان، ولا جرم أن المعتزلة كانوا من أعمدة الفكر والعقل، وقد استطاعوا بهذه العقلية الناقدة الجبارة نقض عقائد الديانات الأخرى، ويتجلى ذلك في رسائلهم وكتبهم وردودهم، إلا أن أسلوبهم غير الحضاري في مواجهة أئمة السلف، وإقناع الخلفاء العباسيين بفرض هذه العقيدة أي الاعتزال على الناس سبب لهم انهيارهم ووسقوطهم، والقصاص في هذا المجال كثيرة لا متسع لذكرها ههنا، ولعل قصة تعذيب أحمد من قبل المعتزلة التي استطاعت إقناع السلطة الزمنية آنذاك خير مثال على ذلك، ولقد ذكر القصة كاملة طاش كبري زاده (ت 968هـ) بصورة تراجيدية في كتابه المعروف<sup>6</sup>، يقول أبو العباس بن سعيد<sup>7</sup>: "لم يصبر في المحنة إلا أربعة كلهم من مرو: أحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر الخزاعي المضروب عنقه، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حماد قد مات في السجن مقيدا"<sup>8</sup>. وقد نجا الشافعي ويحيى بن معين من الفتنة بحيل، ف قيل إن الأول لجأ إلى التورية، والثاني استدل بقوله تعالى { مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }<sup>9</sup> ثم قال أجبنا خوفا من السيف"<sup>10</sup>.

لذلك كانت هناك جملة من الأسباب جعلت علم الكلام بضاعة أجنبية مرفوضة من قبل علماء السلف، وألفوا كتباً عديدة في رفضه وذمه، ليس لما في مضامينه من مفردات بل لما آل إليه علم الكلام، ولذلك قام لفييف من العلماء بعد المعتزلة بتجديد العمل بهذا الفن، بالرغم من موقف السلف السلبي لعلم الكلام، ولكنهم فهموا المسألة على كنهها، وأن علم الكلام فن أسيء استعماله، ونحن سنحسن استعماله، ومن جملة هؤلاء الذين جمعوا بين علم الكلام الاعتزالي

<sup>6</sup> طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق د. علي دحروج (بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1998م) ص224-225..

<sup>7</sup> سورة النحل الآية 106.

<sup>8</sup> طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ص222-226

وعقائد السلف الأثرية التقليدية عبد الله بن سعيد الكلابي (ت 240هـ) وأبو العباس القلانسي (ت 255هـ) والهارث بن أسعد المحاسبي (ت 343هـ) وعبد العزيز المكي (ت 854هـ) وهؤلاء من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية، وبراهين أصولية<sup>9</sup>. ولقد كانت محاولة هذه الطائفة من العلماء ضعيفة في مقاومة التيار التقليدي المعروف الذي كان يقوده أشياع أحمد بن حنبل، ولكن مع ذلك استمرت الجهود في الذود عن علم الكلام كفن يمكن الاستفادة منه في مقاومة الأفكار والأديان الأخرى، وبظهور أبي الحسن الأشعري أصبح علم الكلام علما شرعيا قويا، لا يمكن رفضه، فقد استعمله في أكثر مؤلفاته، واستفاد منه كثيرا، وكيف لا فهو قد ترتع في بيئة اعتزالية محضة، حيث كان أبو علي الجبائي زوج أمه، وتعلم الكثير منه، فقد كان بمثابة الوالد والمعلم، إلى أن تمرد عليه، واعتزله، وتخلّى عن عقائد المعتزلة، وأعلن براءته من المعتزلة على المنبر، والقصة طويلة لا مجال لذكرها، وأعلن رسميا انتسابه لمذهب أحمد بن حنبل، لكن هذا الانتساب الأيدولوجي لم يجعله يتخلّى عن علم الكلام نهائيا، بل بقي مع مذهبه السلفي التقليدي مستعملا علم الكلام للذود عن حياض الدين ضد شبهات المخالفين، ولأجل ذلك شك كثيرون في عودة الأشعري إلى مذهب السلف، وذلك لخلطه بين علم الكلام وعقائد السلف، والحقيقة أن الأشعري بقي متمسكا بمذهب السلف، لكنه في الوقت نفسه بقي ملتزما بمنهجيته التي تتخذ من علم الكلام وسيلة للرد على مخالفي عقائد السلف، وهذا ما نلاحظه في مؤلفاته العديدة، ولعل خير مثال يبين هذه الحقيقة عنوان كتابه الشهير (استحسان الخوض في علم الكلام).

أما موقف ابن تيمية الحراني فيتجلى من خلال مؤلفاته الكثيرة، حيث إنه من أشد المنتقدين لعلم الكلام الذي جاء به الاعتزال، إلا أن الذي يقرأ كتبه ورسائله وخاصة كتبه الشهيرة مثل (درء تعارض العقل والنقل) و(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) و(منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) لأصبح على قناعة أن ابن تيمية الحراني كان متكلمًا ممتازًا، لأنه بتعريف علم الكلام تتجلى هذه الحقيقة، ولننظر إلى تعريف الغزالي فهو ينطبق على حالة ابن تيمية الحراني، يقول الغزالي في تعريف علم الكلام: " حفظ عقيدة أهل

<sup>9</sup> الشهرستاني: الملل والنحل تحقيق: عبدالعزيز محمد الوكيل، (بيروت: دار الفكر، د. ط. ت) 93/1 وابن

عساكر دمشق: تبين كذب المفترى فيما نسب الى الإمام ابي الحسن الأشعري (بيروت، دار

الكتاب، ط 1404، 3هـ) ص 116.

السنة على أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة"<sup>١٠</sup> ، وهذا عين ما قام به ابن تيمية الحراني، حيث رد في كتابه الأول على مخالفي عقائد السلف، ورد في كتابه الثاني على مزاعم المسيحيين في تصورهم حول حقيقة عيسى(عليه السلام) وكذا الأناجيل، ورد في كتابه الأخير على الشيعة والقدرية"<sup>١١</sup> ، وهذه الردود هي عين تلك الردود التي قام بها كل من الأشعري والغزالي والجويني، فلم يكون علم الكلام مذموماً في حقهم، وغير مذموم بحق ابن تيمية الحراني؟ وعليه فإن في المسألة تشوشاً وتمويهاً، " ويذهب أحمد صبحي إلى أن ابن تيمية اضطر إلى أن يكون:" متكلماً، وبذلك انتهى نهى الحنابلة عن الخوض في علم الكلام، إذ أن معظم مؤلفات ابن تيمية تدور حول مسائل الكلام، بل أصبح أهل السلف أطول وأشد مراساً في الكلام من الأشاعرة الذين دخلوا دور التقليد والجمود"<sup>١٢</sup> . فعلم الكلام فن وعلم أسسه العلماء للذود عن حياض الدين، وليس وسيلة للقضاء على عقائد السلف وتشويهها أو ما شابه ذلك من تصورات ضحلة لا قيمة علمية لها، ثم إن إمام أهل السنة قاطبة، وهو أحمد بن حنبل قد لجأ إلى علم الكلام، وما كتابه الشهير(الرد على الجهمية والزنادقة) إلا يصنف في مجال علم الكلام، وهل أنكر أحد عليه ذلك، يقول ابن تيمية الحراني:" فإن أحمد لم ينه عن نظر في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب، بل في كلامه في أصول الدين من الرد على الجهمية وغيرهم من الاحتجاج بالأدلة العقلية على فساد قول المخالفين للسنة، ما هو معروف في كتبه وعند أصحابه"<sup>١٣</sup> . فالسلف ذموا علم الكلام المجرد عن القرآن والسنة، وأكثر مؤلفات علماء السلف تشبه كتب علم الكلام، ولكنها لم تتجرد عن النصوص الدينية، ثم إن هذا الفن ليس لكل من هب ودب، بل هو علم خاص لجهاذة

<sup>١٠</sup> الغزالي: المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال تحقيق د. سميح دغيم (بيروت، دار الفكر اللبناني، ط 1، 1993م)ص59.

<sup>١١</sup> يعد كتاب (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) من أخطر الكتب التي هدت وتهدد الفكر الشيعي، وبسبب هذا الكتاب أصبح ابن تيمية الحراني من أبغض خلق الله إليهم، حيث فضح الشيعة، وبين خرافاتهم وأكاذيبهم، يقول الأستاذ محمد كرد علي عن كتابه منهاج السنة: "وكان - كتابه - عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل، ولو ادعينا أنه لم يأت عالم يعرف ما طرأ على الدين، ومذاهب أهله فيه، ساعة ساعة، ويوماً يوماً، ما قدر أحد على رد دعوانا". انظر كتابه: كنوز الأجداد: (دمشق: دار الفكر، ط2، 1404هـ، 1984م). ص349.

<sup>١٢</sup> صبحي، أحمد محمد: في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين: الأشاعرة (الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط4 د.ت) ص14.

<sup>١٣</sup> ابن تيمية الحراني: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم(السعودية، مكتبة ابن تيمية، ط 1، 1401هـ، 1981هـ)7/153-154.

سبروا مضامين علم الكلام ومفرداته، ولهذا أبدع الغزالي عندما ألف رسالته الشهيرة (إلجام العوام عن علم الكلام) ليبين أن علم الكلام لا يصلح إلا للعلماء الراسخين، وليس يصلح للعوام، لأنه بمثابة الدواء، ومعلوم أن الدواء للمرضى فقط.

### ابن تيمية الحراني والتصوف

في مجال التصوف يحاول ابن تيمية الحراني أن يقدم تصوفا سنيا غير مؤوف بأفات التصوف الفلسفي الذي جاء به كل من ابن عربي والحلاج والسهورودي والتلمساني وابن الفارض وابن سبعين وغيرهم من أساطين التصوف الفلسفي، لأن هذا التصوف بدأ سليما وصحيا، لكنه تحول في نهاية الأمر إلى حلول ووحدة وجود ورفع للتكاليف وإسقاطها، وتفضيل للولي على النبي، وفناء وسكر ووحدة أديان، وما إلى ذلك من الشطحات الصوفية المعروفة، وهذه في منظومة ابن تيمية انحراف عن المسار الصحيح للتصوف الحقيقي الذي كان عليه الزهاد الأوائل، ولو أردنا أن نفهم التصوف الذي رضي به ابن تيمية الحراني لألفينا ذلك في كتب تلميذه ابن قيم الجوزية، وخاصة كتابه المعروف (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) وهو شرح لكتاب الهروي (منازل السائرین)، وقد قام بشرحه بعد أن شرحه التلمساني، حيث إن الأخير شرح الكتاب وأفرغه من مضمونه، لأنه غير مسار الكتاب من تصوف حقيقي عملي إلى تصوف نظري فلسفي، وهذا ما دفع ابن قيم الجوزية إلى شرحه من جديد، ليصحح مسار الكتاب، فأعاد الكتاب إلى حضنه الحقيقي، ولهذا نجد البون الشاسع بين الشرحين، الأول شرح فلسفي نظري جاف مجرد عن النصوص الدينية، والشرح الثاني عملي تطبيقي إيماني، وما أكثر النصوص الدينية والآثار في شرح ابن قيم الجوزية، لقد كان ابن قيم الجوزية من أشد تلامذة<sup>14</sup> ابن تيمية الحراني ملازمة له، وإعجابا به، وحبا له، حيث لاقى الكثير بسببه، لأنه كان يدافع عن آراء شيخه، ولذلك فإن ابن قيم الجوزية أبدع في مدارجه في توضيح التصوف السني الحقيقي، وبين حقيقة التصوف الفلسفي الذي جاء التلمساني وغيره.

<sup>14</sup> من أشهر تلامذة ابن تيمية الحراني: الذهبي (ت 748هـ)، وابن كثير (ت 774هـ)، وابن كثير مع كونه شافعي المذهب في الفروع، لكنه كان في الأصول متبعا لابن تيمية، ويتجلى هذا من خلال تفسيره المعروف، وقد وقع بين ابن قيم الجوزية وابن كثير منازعة في تدريس الناس، فقال له ابن كثير: أنت تكهني، لأنني أشعري، فقال له: لو كان من رأسك إلى قدمك شعر، ما صدقك الناس في قولك إنك أشعري وشيخك ابن تيمية". انظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 65/1.



إن الجانب الذي حاربه ابن تيمية الحراني في التصوف هو الغلو الصوفي بشقيه الفلسفي والعملي، وذلك لأنه يتجاوز تقريرات النقل، وتقديرات العقل، وما كان ذلك فحري أن يتم نقضه ورفضه ومعاندته، وفي الوقت نفسه حاول ابن تيمية الحراني أن يبحث عن بديل في كل محاولة من محاولات، وهذا ينبىء أن ابن تيمية الحراني يدرك أهمية التصوف - كزاوية وجدانية روحانية شعورية شفاقة في الإنسان - وإلا ما الداعي للبحث عن البدائل لو كان الأصل فاسداً، فالأصل أصيل، والأساس متين، ولكن البناء أو الهيكل الذي بني عليه بحاجة إلى تعديلات وتحسينات، حتى تتحسن الصورة، ويتم البناء على أجمل صورته، فالعملية التي أجراها ابن تيمية الحراني للتصوف عملية تهذيب وتشذيب، من أجل الاحتفاظ بذلك الجانب الضروري الشخصاني الفردي، ووقتئذ لا يمكن نقل هذه التجربة الشخصانية وهي التجربة الصوفية *Mystical Experience* كما يسميها الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس *William James* إلى الآخرين، لأنه لا يمكن نقل الوجدان والشعور والإحساس إلى الآخرين، لأنها حالة فردية شخصية، وهل يمكن نقل الشعور بالجوع والظمأ والألم والحنين والحب والعشق والصبابة والسقم إلى الآخرين، لذا لا بد لصاحبه أن يشعر بذلك، ويعيش هذه الحالة، وهي حالة لا تتأتى إلا بالتجارب الشخصانية، ومن الخطأ - كما يفعل بعض الصوفية - نشر هذا الفكر وإذاعته، وهو أمر لم يفعله كبار الصوفية العظام، بل كانوا يعيشون في هذه التجربة، ومن ثم تتجلى مظاهرها في شخصيتهم خلقاً وسلوكاً وتصرفاً وموقفاً، ومن ثم يتأثر بهم الآخرون، وتنتقل التجربة بهذه الصورة، لا أن ننقل التجربة، لأن التجارب لا تنقل، ولا تفرض، وهذا عين ما فعله الغزالي فهو لا ينشر التصوف، بل يتحدث عن تجربته المريرة، وكيف عانى وما فعل خلال تلك الفترة العصيبة في حياته، وهكذا بقية علماء التصوف.

ومما رفضه ابن تيمية الحراني في التصوف، فكرة الفناء والخلول ووحدة الوجود وإسقاط التكاليف الدينية ووحدة الأديان، وأكثر هذه المفردات تدخل في إطار التصوف الفلسفي، وفي الجانب الآخر من التصوف وهو العملي رفض ما يقوم به الصوفية من المغالاة في الشيوخ وتقديسهم، والتمسح بقبورهم، والصراخ والرقص وضرب الجسم والاختلاط والسكر وحالات غريبة تشمئز منها القلوب وتتقرز منها الأبدان، وهي حالات مرفوضة قلباً وقالبا، نجد أكثرها في الديانات الشرقية القديمة وخاصة الهندوسية *Hinduism* وبعض الديانات الأفريقية البدائية *Primitive religions*، ولعل هذا ما دفع ببعض الباحثين إلى اتهام التصوف بأنه بضاعة هندوسية تكونت من تراكم الديانات الشرقية القديمة وبقاياها.

من الخطأ أن يعد ابن تيمية الحراني عدو التصوف العنيد، لم يكن كذلك، بل كان يعادي هذه الجوانب الخاطئة في حقول التصوف، ولو قرأنا حياة ابن تيمية الحراني، وتصفحنا مدارج

السالكين لتلميذه ابن القيم لوجدناه عارفا زاهدا متصوفا، حيث الحياة الساذجة، قضى أكثر حياته في السجون، وهو يشعر بالسعادة، فيعد السجن خلوة مع ربه، وينقل من سجن إلى سجن آخر، فيعتبر ذلك سياحة، ويأمر القضاة بقتله، فيبستم، ويقول: إن قتلي شهادة، ويمر الزمن فيصبح ذا قوة وهيبة فيعفو عن جميع من ظلمه، ويشارك في ماتم ألد أعدائه، ويواسيهم ويعد بمساعدتهم، ويموت في السجن في نهاية المطاف، وأصعب من ذلك كله أنه لم يتزوج، ومات أعزب، وهذا هو التصوف الحقيقي،<sup>15</sup> ولعلنا نذكر بعض الأمثلة على ذلك: ذكر ابن قيم الجوزية: " ما رأيت أحدا قط أجمع لهذه الخصال -العفو والمسامحة- من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه ، وما رأيتَه يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم ، وجئت يوما مبشرا له بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرني وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم وقال: إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسروا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه"<sup>16</sup>.

وقال ابن قيم الجوزية: " وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحمت فهي معي، لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة -أي قلعة دمشق-: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ، ونحو هذا ، وكان يقول في سجوده : وهو محبوبس اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله ، وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: { فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ }<sup>17</sup>، ثم قال ابن قيم الجوزية :وعلم الله ما رأيت أحدا أطيّب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيّب الناس عيشا، وأشرحهم صدرا، وأقواهم قلبا ، وأسره نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون

<sup>15</sup> ترك الزواج ليس تصوفا، بل هو مخالفة واضحة لسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وابن تيمية لم يتزوج لا رغبة عنه، بل لأنه انشغل بأمور حالت دون تطبيق تلك السنة، ثم إن الرجل قضى جل عمره طريدا معذبا مهانا وأخيرا مفارقا الحياة في سجن قلعة دمشق، فالفرصة لم تكن موثية والله أعلم.

<sup>16</sup> ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق : محمد حامد الفقي ( بيروت،

دار الكتاب العربي، ط2، 1393هـ، 1973م) 345/2

<sup>17</sup> سورة الحديد الآية 13.

وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة"<sup>١٨</sup>.

ولنذكر بعض درره القيمة والتي تدل على أهمية هذا الجانب الروحي في شخصية ابن تيمية، منها قوله: "العارف لا يرى له على أحد حقاً ، ولا يشهد له على غيره فضلاً ، ولذلك لا يعاتب ، ولا يطالب ، ولا يضارب"<sup>١٩</sup> ، وكان يقول: "الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده، يوجب عليه انتصاره لها"<sup>٢٠</sup> ، ومن درره أيضا قوله: "الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة" قال ابن القيم تعليقا: وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها"<sup>٢١</sup> ، وقال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطا في النجاة أو نحو هذا من الكلام"<sup>٢٢</sup> ، يقول ابن القيم: وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إلي وقال : هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي أو كلاما قريبا من هذا وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر أو كلاما هذا معناه"<sup>٢٣</sup> . ثم ذكر حالة له قائلا: " ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرا : ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا في شيء ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت : أنا المكدي وابن المكدي، وهكذا كان أبي وجدي، وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول : والله إنني إلى الآن أجد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا، وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه: أنا الفقير إلى رب البريات، أنا المسيكين في مجموع حالاتي، أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي"<sup>٢٤</sup>.

<sup>18</sup> ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض (بيروت، دار الكتاب

العربي، ط1، 1405هـ ، 1985م) ص67.

<sup>19</sup> ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين 523/1

<sup>20</sup> ابن تيمية: قاعدة في الصبر ص18.

<sup>21</sup> ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين 10/2.

<sup>22</sup> المصدر السابق 26/2.

<sup>23</sup> ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب ص63.

<sup>24</sup> ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين 525/5.

من المسائل التي ناقشها ابن تيمية الحراني بإسهاب نظرية وحدة الوجود التي أسسها بصورة تكاملية ابن عربي الأندلسي، والفكرة مع كونها قديمة في الأديان والفلسفات الأخرى، لكننا نجد حقيقة هذه النظرية عند ابن عربي في الإسلام، فهو قد عرف بها، هذه النظرية الفلسفية مغزاها توحيد الوجود، فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد ، فتوحد الوجودان، يقول ابن عربي موضحاً نظريته: "ناديت يا أنا، فلم أسمع إجابة، فخفت من الطرد، فقلت: يا أنا لماذا لا تجيبني؟ فقال لي: يا متناقض الحكم لو دعوتني أجبتك، وإنما دعوتَ أنايتك، فأجب نفسك عنك، فقلت: يا أنا، إنما قلت: أنا من حيث إن أنا في أنا، أنا، كما أن الواحد هو الواحد، قال: صدقت، فأجب نفسك عني، ولا تطلب مني الإجابة، فقل لأنايتك تجيبك"<sup>٢٥</sup>.

لم يرفض ابن تيمية هذه النظرية جملة وتفصيلاً، وإنما أعاد صياغتها، فسماها بوحدة الشهود بدل وحدة الوجود، حيث قال: " وهذا يحصل للكثيرين من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله، وعبادته، ومحبته، وضعف غير الله، بل ولا يشعرون به كما قيل في قوله تعالى: { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }<sup>٢٦</sup> ، قالوا فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، وهذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور، إما حب وإما خوف وإما رجاء، يبقى قلبه منصرفاً عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه بحيث يكون عند الاستغراق في ذلك لا يشعر بغيره. فإذا قوى على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن، وهي المخلوقات والعباد فمن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى. والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره وفناؤه عن أن يذكرها أو يشهدا، وإذا قوي هذا، ضعف المحب حتى يضطرب في تمييزه، فقد يظن أنه هو محبوبه "، ثم ذكر ابن تيمية الحراني قصة تضاهي هذه الحالة قائلاً: " أن رجلاً كان يحب آخر، فوقع المحبوب في اليم، فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت، فما الذي أوقعك؟ فقال: غبتُ بك عني فظننتُ أنك أني "<sup>٢٧</sup>.

<sup>٢٥</sup> ابن عربي: كتاب الباء، ضمن رسائل ابن عربي (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1361هـ) 13/1.

<sup>26</sup> سورة القصص الآية 10.

<sup>27</sup> ابن تيمية الحراني: العبودية (بيروت: المكتب الإسلامي، ط 2، 1389هـ) ص 144-148 والتدمرية،

تحقيق: محمد بن عودة السعوي، (د. م: د. ن، ط 1، 1985م) ص 221-222. ومجموع الفتاوى : : مجموع

فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، (د. م: د. ن، ط )

ثم فرق ابن تيمية الحراني بين حالتين، حالة بعض الصوفية الذين يقعون في حالة السكر والاصطلام والفناء، فيقولون ما لا يشعرون، وقد ذكر ابن تيمية الحراني أن كثيراً من السالكين قد وقعوا في هذا الفناء، أي وحدة الشهود، وصدرت عنهم أقوال تنافي أصول الإسلام وقواعده، أمثال أبي يزيد البسطامي وأبي الحسين النوري، وأبي بكر الشبلي وغيرهم، إلا أن ابن تيمية يحاول التماس الأعذار لبعضهم دون بعض، وسبب ذلك أن بعض الذين صدرت عنهم مثل هذه الأقوال التي هي -الشطحات في حالة السكر- لو صحوا لعرفوا أنهم كانوا غالطين، ولندموا على ما قالوا، وذلك لأن هؤلاء يعظمون الشريعة. قال ابن تيمية الحراني: "ولهذا كان أرباب الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم يأمرؤن أهل القلوب أرباب الزهد، والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة"<sup>٢٨</sup>. ولما قيل لأبي يزيد البسطامي قد قدم شيخ من أصحابك، فذهب ليزوره، فرآه قد بصق في القبلة فقال: "ارجعوا بنا، هذا رجل لم يأتئنه الله على أدب من آداب الشريعة، فكيف يأتئنه على سره"<sup>٢٩</sup>.

وأحياناً يجد ابن تيمية الحراني تأويلاً لأقوالهم فيحملها على أحسن المحامل، كل ذلك تبرئة للمشايخ، حيث قال: "فإنهم إذا قال أحدهم: ما أرى غير الله، أو لا أنظر إلى غير الله، ونحو ذلك، فمرادهم بذلك ما أرى رباً غيره، ولا خالقاً ولا مدبراً غيره، ولا إلهاً لي غيره، ولا أنظر إلى غيره محبة له، أو خوفاً منه، أو رجاءً له"<sup>٣٠</sup>.

### ابن تيمية الحراني وفلسفة التسامح

كان الظرف الذي يعيش فيه ابن تيمية ظرفاً قاسياً من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، حيث ترك مسقط رأسه (حران) في شمال كردستان، وهو صغير مع أهله، متجهاً إلى دمشق، وذلك بعد غزو التتار لبلاد المسلمين، ومن دأب الغزوات جلب الفوضى والمجاعة والخوف والهلع والفرار، إضافة إلى ذلك تفرق المسلمين في دينهم، وتمزق المسلمين في أوطانهم، حيث الصراعات السياسية الداخلية كانت قد أنهكت كاهل الشعوب المسلمة، في هذه الظروف العويصة والعصيبة تترعرع ابن تيمية الحراني، وبدأ حياته بطلب العلم، حتى نبغ فيه، وبلغ مرتبة مرموقة، وكان مع ذلك جريء القلب والرأي، لا يدهن أحداً، ولا يداريه، بل كان يصدع بالحق، وهذا ما سبب له المشاكل، حتى أودعته سجن قلعة

<sup>٢٨</sup> ابن تيمية الحراني: الرد على المنطقيين: تحقيق: رفيع العجم، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط 1، 1993م) 236/2.

<sup>٢٩</sup> ابن تيمية الحراني: الرد على المنطقيين 236/2.

<sup>٣٠</sup> ابن تيمية الحراني: العبودية ص 151.

دمشق، ومات فيها، لذلك تعددت جبهاته، وكثر خصومه وأعداءه، ولنذكر تلك الجبهات الفكرية التي كان يقاومها ابن تيمية الحراني:

● غلاة الصوفيّة: - كالحلولية، والقائلين بوحدة الوجود، وقد رد عليهم ابن تيمية في كتابه (بغية المرئاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد).

● المتكلمون: رد على الأشعري والباقلاني والرازي والأمدى والأرموي في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) و (موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول).

● الفلاسفة: - فقد نقض الفلسفة اليونانية، ورد على الفلاسفة في الإسلام، كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وغيرهم نجد تلك الردود في مجموع فتاواه الكبير.

● الشيعة: رد على جميع طوائف الشيعة، وجعلهم مراتب، ولم يعمم الحكم عليهم، وقد ذكر ذلك كله في كتابه (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية).

● المقلدة: رد على المقلدة المتعصبين من أتباع المذاهب الأربعة، كما في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

● المناطقة: - نقض المنطق اليوناني، وأبطل كون المنطق ميزاناً لكل العلوم كما ذهب إليه الغزالي، انظر: (نقض المنطق) و(الرد على المنطقيين).

● المسيحيين: رد عليهم في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)

● الأشاعرة: نقد ابن تيمية الحراني بعض أصول الأشاعرة، كقضية الصفات الخبرية، ومسألة الإيمان، ومسألة الجبر والكسب في القدر وهلم جراً، وهذا مذكور في كثير من رسائله (الحموية، التدمرية، المراكشية، الأصفهانية، الواسطية، المدنية).

● المخرفون وأهل البدع: رد الخرافات والبدع التي رانت على أفكار العامة، وبعض أهل العلم، ولقد ذكر ذلك في بعض رسائله مثل (قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة) و(اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) و(الرد على الأحنائي).

● رد على المعتزلة والجهمية والمرجئة والجبرية وغيرها من المذاهب، وهذه الردود ماثوثة في مصنفاة ورسائله.

ومع ما لاقاه من خصومه من عنت ومعاداة وتضليل وتكفير، إلا أنه لم يرد عليهم بالمثل، بل عفى عنهم، ودعا لهم، وذكر لهم الأعذار، ولعل أفضل مثال على ذلك ما جرى بين ابن تيمية الحراني وقاضي المالكية ابن مخلوف الذي كان يعاديه وأفتى بقتله وسجنه وإهانته

وإخراجه من دمشق، ولما علم السلطان محمد بن قلاوون المملوكي<sup>31</sup> ما جرى لابن تيمية الحراني من ظلم وتضليل ومؤامرة لقتله وإخراجه من دمشق وسجنه، أراد أن ينتقم لابن تيمية الحراني، وطلب منه أن يفتي بقتلهم وتعذيبهم، ولكن ابن تيمية الحراني رفض ذلك: " فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، وينكر أن ينال أحدا منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد أذوك وأرادوا قتلك مرارا، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح، ووقئذ قال قاضي المالكية ابن مخلوف: ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا، وحاجج عنا"<sup>32</sup>.

ومما ذكره الحافظ عمر البزار: " إن الشيخ قدس الله روحه مرض أياما يسيرة ، وكان إذ ذاك الكاتب شمس الدين الوزير بدمشق المحروسة ، فلما علم بمرضه استأذن في الدخول عليه لعيادته فأذن الشيخ له في ذلك، فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه، ويلتمس منه أن يحله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حقه من تقصير أو غيره، فأجابه الشيخ - ابن تيمية الحراني- رضي الله عنه بأني قد أحللتك، وجميع من عاداني، وهو لا يعلم أنني على الحق ، ... إني قد أحللت السلطان الملك الناصر من حبسه إياي، لكونه فعل ذلك مقلدا غيره ، معذورا ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقا من مبلغه، والله يعلم أنه بخلافه ، وقد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدوا لله ورسوله"<sup>33</sup>.

ولهذا انتقد ابن تيمية بعض الفقهاء الذين يسرعون في هذه المسائل إلى تكفير الناس قائلا: " فإن كثيرا من الفقهاء يظن أن من قيل هو كافر فإنه يجب أن تجري عليه أحكام المرتد ردة ظاهرة فلا يرث ولا يورث ولا يناكح حتى أجروا هذه الأحكام على من كفروه بالتأويل من أهل البدع وليس الأمر كذلك... وكان في المنافقين من يعلمه الناس بعلامات ودلالات بل من لا يشكون في نفاقه ومن نزل القرآن ببيان نفاقه كإبن أبي وأمثاله ومع هذا فلما مات هؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون وكان إذا مات لهم ميت آتوهم ميراثه وكانت تعصم دماؤهم حتى تقوم السنة الشرعية على أحدهم بما يوجب عقوبته"<sup>34</sup>.

<sup>31</sup> تولى السلطان محمد بن قلاوون المملوكي السلطة سنة(693) ونزعت منه من قبل الجاشنكير، ثم عادت إليه السلطة سنة(709)، وكان من محبي ابن تيمية الحراني.

<sup>32</sup> ابن كثير: البداية والنهاية 166/11.

<sup>33</sup> عمر بن علي بن موسى البزار أبو حفص البزار : الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ، تحقيق: زهير الشاويش(بيروت، ط3، 1400هـ)، ص82.

<sup>34</sup> ابن تيمية: مجموع الفتاوى 671/7.

بل لقد ذكر الذهبي آخر ما استقر عليه ابن تيمية قائلاً: " كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفر أحدا من الأمة"<sup>35</sup>.

ولعل هناك من يتهم ابن تيمية الحراني في فقهه، في كونه فقها متشددا، مع أن الأدلة كثيرة في كون كثير من آراءه واجتهاداته تميل إلى التيسير واللين والمصلحة العامة، ولندكر أمثلة على ذلك، جعل الطلاق الثلاث طلقة واحدة، مع أن الأئمة الأربعة اتفقوا على جعلها طلاقا بائنا بينونة كبرى، ووقفه الشديد ضد ظاهرة التحليل (التيس المستعار) العادة القبيحة والمتفشية في المجتمعات المسلمة<sup>36</sup>، وفتواه في جواز المسح على الجوربين، وجواز قصر الصلاة لمجرد كونه سفرا، سواء كان طويلا أو قصيرا، وعدم الالتزام بمسافة معينة، ورأيه الفريد في جعل الجهاد في سبيل الله للدفاع وليس للهجوم، ولقد حاول البعض تكلفا وتعسفا أمثال صالح بن سليمان الخراشي نفي هذا الرأي، وأنه مختلق ولم يقل به ابن تيمية الحراني، وكأن هذا الرأي معيب، ولا يليق بشيخ الإسلام، والحقيقة أن هذا مما يعظم من شأنه ومكانته وعقله وفكره، وأنه قد فهم الجهاد على حقيقته، وهذا الرأي يوافق فلسفة الإسلام الداعية إلى التسامح والعيش مع الآخرين، وعدم إكراه الناس على الإسلام، وينقض - في الوقت نفسه - عرى أشياع التيار التكفيري الجهادي الذين شوهوا صورة ابن تيمية الحراني إلى درجة جعله زعيما للتكفيريين والجهاديين، مع أن ابن تيمية قمة الوسطية والاعتدال والتسامح فكرا وعقلا وسلوكا وخلقا وفقها وهلم جرا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولننقل نص كلام ابن تيمية الحراني الداعي إلى جهاد الدفاع وليس جهاد الطلب: " وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين والأول هو الصواب لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله"<sup>37</sup>.

إن كلام ابن تيمية الحراني صحيح صريح في تعريف الجهاد، فلم اللجوء إلى مسالك لتشويه كلامه، وتحريفه عن مساره، فهو يؤمن نظريا بهذه الحقيقة، ووجدنا من خلال سلوكياته

<sup>35</sup> الذهبي: سير أعلام النبلاء: تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي (بيروت، مؤسسة

الرسالة، ط9، 1413هـ) 89/15.

<sup>36</sup> وقد ألف ابن تيمية الحراني كتابا حول ذلك، وأفتى بتحريمه، انظر: كتابه إقامة الدليل على إبطال التحليل.

<sup>37</sup> ابن تيمية الحراني: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (بغداد، مكتبة المعارف، ط 5، 1990م) ص 123-124.



ومسيرته وحياته ميالا إلى السلام والتسامح، ينبغي الدفاع عن هذا الرأي، واستثماره في هذا العصر الكوني، وينبغي أن تفتخر الأمة المسلمة بمثل هذه الآراء التي تقدم الإسلام في صورة رائعة وحضارية، ولست أدري أي حكمة في الذود عن رأي هش ضعيف يجعل الجهاد طلبا، هل هو رغبة في السيطرة على العالم، أو طمع في الجوازي والسبايا، أو حب في جمع الأموال والغنائم، أيريد المسلمون القضاء على الصين والهند وأمريكا وأوربا بالجهاد، إن لكل عصر جهاده، وجهاد المسلمين اليوم يكمن اليوم في طلب العلم والمعرفة، والتنمية البشرية في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والطب والهندسة والجيولوجيا وعلوم الحياة والتمدن والرقي، والقضاء على الفقر والجوع والبطالة والفساد والتخلف والتقهقر، نحن المسلمين لا نتقدم إلا في الأعمار، ولم نتقدم في الإعمار، والأمثلة كثيرة جدا، لا مجال لذكرها ههنا، والمسألة بذاتها بحاجة إلى دراسة مستقلة.

### ابن تيمية والصفات الإلهية

شبهت الباحثة كارين أرمسترونغ ابن تيمية الحراني بمارتن لوثر (ت1546م) *Marten Luther* البروتستانتي الألماني، حيث قالت: "لقد رفض ابن تيمية اللاهوت والفقهاء القروسطي كي يعود إلى الإسلام النقي في القرآن والسنة، كذلك فعل لوثر عندما هاجم اللاهوتيين المدرسين القروسطيين، وحاول العودة إلى المسيحية النقية في الكتاب المقدس"<sup>38</sup>.

جاء ابن تيمية الحراني وهو يواجه مدرسة تاريخية متجذرة وعريقة، وهي المدرسة الأشعرية الرسمية للدولة، حيث عرفت بالمدرسة السننية لأنها تمثل عقائد أهل السنة، وطريقة السلف الصالح، فقام بدراسة مناهجها وعلومها وخاصة الجوانب العقدية، فوجد أن هذه المدرسة لا تمثل طريقة السلف الصالح في الجانب العقدي، فبدأ بتأليف رسائل وكتب ومؤلفات عقدية يبين فيها حقيقة هذه المدرسة أو المذهب، صادعا صريحا كدأبه في بيان تناقضات المذهب ومخالفاته، وبين أن هذه المدرسة أقرب إلى المعتزلة منه إلى السلف الصالح، وقد كانت الرسالة الحموية أهم ضربة يوجهها ابن تيمية لأشباع المذهب الأشعري، حيث بين أن ثمة فرقا بين مذهب أبي الحسن الأشعري وبين الأشاعرة، لأن أبا الحسن ومن بعده كالباقلائي والبيهقي وابن فورك كانوا على طريقة السلف الصالح، لأنهم لم يلجأوا إلى التأويل في الصفات الإلهية، بخلاف طريقة المتأخرين بدأ من الجويني ومن بعده الغزالي والرازي والآمدني وغيرهم،

<sup>38</sup> كارين أرمسترونغ: : النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام ترجمة: محمد الجورا (دمشق، دار

نعود إلى تلك الفتوى (الحموية الكبرى) التي كانت سببا في محنته، كان ذلك سنة (698هـ)، بين في تلك الفتوى أن عقيدة النبي (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والخلفاء والتابعين والأئمة المتبوعين هي الإيمان بالصفات الإلهية كما جاءت من غير تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، وأن التأويل الذي لجأ إليه الأشاعرة ليس طريقة السلف بل هي طريقة الخلف، والأولى بل الواجب اتباع السلف في الجانب العقدي، لأنهم أفضل علما ومعرفة بمثل هذه المسائل الغيبية التي تلقاها الصحابة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ثم بين أن هذه هي طريقة إمام الأشاعرة أبو الحسن والباقلاني والبيهقي وابن فورك والبغدادي، فالتأويل الذي لجأتهم إليه بضاعة طارئة أستقاها الجويني ومن بعده من بقايا تراث المعتزلة القديم، والذي يختلف في طريقة الأشعري أنه لجأ إلى علم الكلام كوسيلة للذود عن حياض العقيدة، ولم يلجأ إليه من أجل الخوض في التأويل، وهذا ليس خلاصا منهجيا في تصور ابن تيمية الحراني، بل الخلل الأعظم هو تأويل الصفات الإلهية بتأويلات متعسفة متكلفة، تخرجها عن سياقها ومسارها وسلوكها.

إن الخلاف الحقيقي بين ابن تيمية الحراني والأشاعرة تركز على الصفات الخبرية، فالأشاعرة أثبتوا سبع صفات لله تعالى فقط، لكونها حسب تصورهم هي الصفات العقلية، أي أن العقل يستحيل نفيها، بل العقل يقتضي إثباتها لله تعالى، وهي (القدرة، العلم، الحياة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام)، أما الصفات الأخرى الخبرية الوجودية، فالعقل يستحيل إثباتها ظاهرا، بل يقتضي تأويلها، ولا يمكن نفيها، لأنه أي النفي تعطيل، والتعطيل وسيلة المعتزلة المعروفة، ولهذا قيل: المعطل يعبد عدما، والمشبه يعبد صنما، أو المعطل أعمى، والمشبه أعشى.

جاء ابن تيمية الحراني ليفند رأي الأشاعرة، قائلا: إن هذه الصفات سواء كانت عقلية أو خبرية، وردت في كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي صحيحة صريحة، وقد كان الصحابة والتابعون على علم بها، فلم يلجأ أحد منهم إلى التأويل، أو اعترض عليها، في كونها يقتضي إثباتها تشبيها أو تجسيما، بل إنهم - مع علمهم باللغة والبلاغة والفصاحة - آمنوا بها، كما جاءت من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل، والقاعدة الأساسية في هذا الأمر قصة مالك بن أنس عندما جاءه رجل فسأله عن هذه الآية {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} <sup>39</sup>، كيف استوى؟ فقال له: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة. وأراك صاحب بدعة ثم أمر بإخراج السائل <sup>40</sup>.

<sup>39</sup> سورة طه الآية 5.

<sup>40</sup> الشاطبي: الاعتصام (مصر، المكتبة التجارية الكبرى، د.ط.ت) ص 131.

بقي ابن تيمية الحرائي مصرا على هذه المنهجية، فألف الكتب، وحاور خصومه، وأفتى في كثير من الأحيان مخالفا المذهب الرسمي، ولولا ظهور ابن تيمية الحرائي لبقى المذهب الأشعري هو الممثل الشرعي لطريقة السلف، ولكن ابن تيمية نقد هذه الفكرة، وبين أن هذه ليست طريقة السلف، بل طريقة الخلف المتأثرين بالاعتزال، ولما علم خصومه جدية ابن تيمية وإصراره، حاولوا الهدوء معه، والحوار مع أفكاره ومناقشتها، لكن دون جدوى، فحاول خصومه قتله وضربه وإهانته وإخراجه، حتى مات في السجن، قال جولد زيهر المستشرق الشهير "بل إن خصومه -أي خصوم ابن تيمية- سرعان ما اتجهوا إلى الوئام، وتقريب شقة الخلاف، متأثرين بما يشيع في مؤلفاته من روح الجد، والغيرة على السنة والإخلاص للدين"<sup>٤١</sup>.

### ابن تيمية والسلفية

إن الصحابة (رضي الله عنهم) صحبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتلقوا منه الدين من خلال الوحي المنزل عليه، وقد كانوا عربا يفهمون ويدركون ذلك الوحي المنزل بلغتهم، فلم يكونوا يعانون من صعوبة في فهم الوحي، وإذا ما كانت ثمة صعوبة، فإنهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيبين لهم ذلك الإشكال، ولأجل ذلك لا نجد أي حديث ولا خوض في المسائل التي غدت بعدهم إشكاليات عويصة في الفكر الكلامي، كمسائل القضاء والقدر والصفات والأسماء والأحكام وهلم جرا، ولا يعني هذا أن الصحابة كانوا لا يدركون معاني هذه المفردات، ولكن لأن الصحابة كان مهمهم العمل والتطبيق العملي، قال أبو عبد الرحمن السلمي: "لقد حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا"<sup>٤٢</sup>. بل إن عبد الله بن عمر - وهو من أصاغر الصحابة - تعلم البقرة ثمان سنين، وإنما لأجل الفهم والمعرفة<sup>٤٣</sup>. إذن كانت هذه الحقبة نائية عن التفصيلات والتعقيدات والتفريعات وما إلى ذلك، بل كانت حقبة الامتثال المطلق والتسليم الشامل للوحي الإلهي، يقول البغدادي: "كان المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منهاج واحد، في أصول الدين وفروعه غير من أظهر وفاقا، وأضمر نفاقا، وأول خلاف وقع

<sup>٤١</sup> جولد زيهر، أجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة وتعليق: محمد يوسف موسى، عبدالعزيز عبد

الحق، علي حسن عبد القادر، (بيروت: دار الرائد العربي، د. ط، 1946م) ص236.

<sup>٤٢</sup> ابن تيمية: مجموع الفتاوى 154/5.

<sup>٤٣</sup> المصدر السابق والصفحة ونفسها.

منهم اختلافهم في موت النبي عليه السلام، فزعم قوم منهم أنه لم يموت، وإنما أراد الله تعالى رفعه إليه<sup>٤٤</sup>.

وبعد أن انتشر الإسلام، ودخل الناس في دين الله من أبناء الشعوب المختلفة من غير العرب، وحدث الاحتكاك الثقافي والحضاري بين مختلف هذه الأديان والفلسفات والعقائد اضطربت الأوضاع وظهرت أفكار وآراء جديدة تحاول تبيئة أنفسها أو ربما تروم الجمع بينها وبين ما جاء به الإسلام وخاصة في الحقل العقدي، وذلك لأن بعض الذين أسلموا من أبناء تلك الشعوب لأسباب عدة لم يتخلوا عن بعض عقائدهم وثقافتهم، أو أنهم لم يفهموا حقيقة الدين الذي دخلوا فيه، فحصل ذلك الصدام بين ما كانوا عليه، وما دخلوا فيه، وخاصة عند التعامل مع النصوص الدينية، والتي بعضها بلا شك تحتمل تفسيرات عدة نتيجة سعة اللغة العربية. وهذه الآراء والأفكار ترسخت وتحولت إلى مذاهب وفرق سياسية ودينية، أرهقت الفكر الإسلامي رداً من الزمن، ولا تفتأ بعض آثارها ثابوية. فقد ظهرت حركات سياسية دينية كالخوارج والشيعة وأخرى فكرية، كلامية كالجهمية والمرجئة والمعتزلة، وفي الوقت نفسه ظهرت مذاهب دينية تروم الوسط بين هذه التيارات المعاندة، كالماتريدية والأشاعرة، ولعل أفضل من تحدث عن تأريخ هذا التطور في الفكر الإسلامي من القدامى المقريزي، فقد تناول ذلك من بداية عصر الصحابة إلى ظهور ابن تيمية الحراني، ولذا سنقتطف بعض أقواله في ذلك، يقول المقريزي وهو يتحدث عن جيل الصحابة: "ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط مع طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن معنى شيء مما وصفه الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات"<sup>٤٥</sup>. ثم ذكر المقريزي أن عصر الصحابة مبني على هذا، أي على التسليم المطلق وعدم الخوض في التأويل، إلى أن ظهر القول بالقدر، وكان أول من قال بذلك في الإسلام معبد بن خالد الجهني، وقد تبرأ الصحابة من القدرية، وأخذوا في ذمهم على رؤوس الخلائق، وفي مقابل القدرية ظهرت الجبرية الذين جعلوا الإنسان لا إرادة له ولا قدرة، بل كالريشة في أدرج الرياح. وحدث أيضاً في زمن الصحابة فتنة الخوارج الذين تورطوا في التكفير، وعرفوا بالتطرف والغلو في الدين، والمقريزي هنا لم يلتزم التطور التاريخي، ولعله يرى ظهور القدرية قبل الخوارج، على أية حال فإن بدعة التكفير هي أول بدعة ظهرت في الفكر

<sup>٤٤</sup> البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1977م) ص12.

<sup>٤٥</sup> المقريزي: الخطط 356/2.

الإسلامي، والخوارج هم المتورطون فيها. وفي مقابل الخوارج ظهر المرجئة الذين أرادوا الوقوف تجاه تطرف الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة، والخروج على الإمام، فقالوا لا يضر مع الإيمان معصية، فكان نوع استهانة بالذنوب والمحارم. ومن المذاهب التي ظهرت بمرور الزمن بعد عصر الصحابة مذهب الجهمية المعروف بمذهب التعطيل لصفات الله تعالى، نسبة إلى جهم بن صفوان الذي أخذ أفكاره الرئيسية من الجعد بن درهم، وفي الفترة نفسها ظهر المعتزلة فترة الحسن البصري - مع عدم اتفاق الباحثين في بداية ظهور المذهب - وقد عرفوا بأصولهم الخمسة (التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقد كان المعتزلة طبقة من المفكرين ذوي الاتجاهات المختلفة، جمعهم هذه الأصول في نهاية المطاف، وقد عرفوا بثقافة الفكر وقوة الحجة، فهم المتكلمون بمعنى الكلمة، فإذا ما كان الحديث لأهل الحديث، والفقهاء للفقهاء، فإن الكلام للمعتزلة حصرا، وعلى نقيض هذا التيار ثمة طائفة الكرامية التي عرفت بالتجسيم، وهي طائفة يمثلها محمد بن كرام السجستاني (ت 256هـ) وقد ذكر المقرئزي أنه قد جرت مناظرات ومناكرات وفتن كثيرة متعددة بين المعتزلة والكرامية<sup>٤٦</sup>. وسبب ذلك ربما يعود إلى ردود الفعل من ذينك الطرفين، حيث إن المعتزلة بالغوا في الولوج في أبواب التأويل، فما من صفة إلا أولها سواء كان معقولا أو فاسدا، وفي مقابلهم بالغ الكرامية في الإثبات للصفات الإلهية من غير تحقيق لكثير من الأحاديث الباطلة والموضوعة التي أثبتت بعض الصفات، وقد أدى بهم ذلك إلى تصوير الذات الإلهية تصويرا غريبا قريبا من الإنسان في أكثر حالاته، ولما كان مذهب المعتزلة نائيا عن الوسطية والاعتدال، وقريبا من الغلو والتطرف وقف السلف في صف واحد لزمهم الرد عليهم والتشهير بهم، فما من كتاب من كتب السلف إلا ونلفي فيه حديثا مسهبا عن المعتزلة والرد عليهم، ونلاحظ ذلك في دواوين السنن والمسانيد، ويبدو أن الوقوف ضد هذه المذاهب والفرق، والدعوة إلى ما كان عليه الصحابة والتابعين أظهر مصطلح السلف، لأن المقصود بهذا المصطلح الجماعة المتقدمون ... ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح<sup>٤٧</sup>. فالذي يريد السلامة في الدين، والأمن في الآخرة فعليه بالعودة إلى منابع الصافية وهي ما كان عليه السلف الصالح، بعيدا عن الفوضوي الدينية التي سببتها تلك الفرق والمذاهب في تأريخ الفكر الإسلامي، وقد عرفوا بأهل السنة مقابل البدعة، ومصطلح السنة مع كثرة معانيه إلا أن المعنى المتبادر آنذاك قصد به العقيدة التي كان عليها الصحابة والتابعون، وما أكثر أقوال السلف في الحث على اتباع السنة، بل إن كثيرا من مؤلفات السلف

<sup>٤٦</sup> المقرئزي: الخطط 357/2.

<sup>٤٧</sup> ابن منظور: لسان العرب (بيروت، دار صادر. د. ط. ت) 159/9-158.

حملت هذا المصطلح للدلالة على أن السنة هي الطريقة والمنهج الذي كان عليه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم<sup>٤٨</sup>، ثم أضيف مصطلح الجماعة، لأن يد الله مع الجماعة، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذن هذه المصطلحات (السلف والسنة والجماعة) كلها تدل على مقصد واحد، هو التمسك بما كان عليه الجماعة الأولى وهم الصحابة والتابعون من القرون الثلاثة المفضلة<sup>٤٩</sup>، يقول ابن حزم (ت548هـ): "وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث، ومن اتبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، أو من اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم"<sup>٥٠</sup>. وهي الطريقة الوسط بين الغلو والتفريط، والإسلام كدين سماوي خاتم للأديان من خصائصه الوسطية، يقول أبو الحسن العامري (ت381هـ): "إن أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أقواله متوسطة بين الشدة واللين، يجد كل من ذوي الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه، ويستجمع له منه خير دنياه وآخرته"<sup>٥١</sup>.

فيما يخص ابن تيمية الحراني، فإن دعوته مع قوة حججها ورسوخ براهينها لم تنجها من خصومه، وقد قام تلميذه ابن قيم الجوزية بنشر أفكاره وتصورات، وقد عرف في نهاية المطاف هذا المذهب الذي كان يدعو إليه ابن تيمية الحراني وتلامذته بالمذهب السلفي. وعليه، فإن أمامنا ثلاثة مذاهب رئيسية وهي مذاهب عقدية ينتسب إليها المسلمون من أهل السنة في جميع أصقاع العالم الإسلامي، وهي الأشعرية والماتريدية والسلفية، وقد حاول ابن السبكي أن يوسع دائرة أهل السنة والجماعة لتشمل هذه المذاهب جميعها حيث ذكر أن مصطلح أهل السنة والجماعة بالاستقراء ثلاث طوائف: "الأولى أهل الحديث والثانية الأشاعرة والماتريدية والثالثة

---

<sup>٤٨</sup> من هذه الرسائل أصول السنة لأحمد بن حنبل والسنة للخلال وشرح السنة للبرهاري وأصول السنة للحميدي وغيرها من المصنفات العديدة.

<sup>٤٩</sup> يرى الشيخ أبو زهرة أن مصطلح السلفيين ظهر في القرن الرابع الهجري، وكانوا من الحنابلة، وزعموا أن جملة آراءهم تنتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف وحارب دونها، ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري، أحياه شيخ الإسلام ابن تيمية وشدد في الدعوة إليه". انظر: أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية (د.م.ط.ت. دار الفكر العربي) ص187.

<sup>٥٠</sup> ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (القاهرة، مكتبة الخانجي. د.ط.ت) 90/2.

<sup>٥١</sup> أبو الحسن العامري: الإعلام بمناقب الإسلام تحقيق د. أحمد عبد الحميد غراب (القاهرة، د.ط.ت. دار الكتاب العربي، 1387هـ، 1967م) ص139.

الصوفية"<sup>٥٢</sup>. وقد جعل ابن السبكي الأشاعرة والماتريدية طائفة واحدة، وذلك ربما لعدم الاختلاف في العقائد إلا في مسائل فرعية عقدية لا تقتضي ذلك الاختلاف الكبير<sup>٥٣</sup>، وكذلك جعل الصوفية طائفة، وهذا التقسيم غير سديد، وذلك لأن الصوفية ليسوا أصحاب مذهب عقدي منفصل، بل هم أيضا تابعون لأحد المذاهب الثلاثة المذكورة، فالأولى التركيز على الثلاثة التي ذكرناها، وهي الأشعرية والماتريدية والسلفية فقط، ومن الغلو أن يحتكر كل مذهب مصطلح أهل السنة والجماعة، ويصف غيرها من المذاهب بالبدعة والانحراف. والعجب أن بعض المعاصرين أيضا لم ينجو من الوقوع في هذا المسلك المغلوط، حيث يقول أحدهم وهو يتحدث عن مصطلح أهل السنة والجماعة: "أما المعنى الخاص وهو المراد، فسنحاول في ثنايا البحث أن نكشف عن اختصاص الأشاعرة به دون غيرهم من فرق الكلام في الفكر الفلسفي الإسلامي"<sup>٥٤</sup>. فالأحرى في مثل هذه المواطن الخطيرة توسيع دائرة أهل السنة والجماعة وعدم تضيقها، لأن تضيقها يقتضي إخراج مذاهب وهي توافق قواعد أهل السنة والجماعة على وجه العموم، وإخراج تلك المذاهب يقتضي أنها أهل بدع وانحراف في الجانب العقدي، مع أن الاختلاف في الجزئيات والفرعيات وبعض مسائل العقيدة الفرعية ليس خروجاً عن قواعد أهل السنة والجماعة وأصولها، يقول الشاطبي وهو يتحدث عن حديث الافتراق: "إن هذه الفرق إنما تصير فرقا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين، وقاعدة من قواعد الشريعة، ولا في جزئي من الجزئيات"<sup>٥٥</sup>. وعليه، فإن مصطلح أهل السنة والجماعة يشمل الأشاعرة والماتريدية، ولا يضير الاختلاف في بعض المسائل، لأن ذلك الاختلاف ربما يقع ويحصل من خلال الاختلاف في مناهج التفكير في بعض الأحيان، هذا من جانب، ومن جانب آخر ليس ثمة مذهب سلفي فقهي، لأنه ليس منسوبا إلى شخص بعينه، بل لكل إمام من أئمة السلف اجتهاداته وآراؤه، وهي لا تمثل إلا دائرة شخصية ضيقة ترتد إليه، ولا تمثل غيره. إذن مذهب السلف محصور في دائرة العقائد الدينية فحسب، فالدعوة إلى هذا المذهب عودة إلى ما كان عليه الصحابة والتابعون في الجانب العقدي، ولا يعني هذا عدم اتباع الصحابة في الجوانب الأخرى كالجانب الأخلاقي والدعوى والمنهجي والعملي، فهذا مما لا مرية فيه، في وجوب اقتفاءها، ولكننا هنا نتحدث عن الطريقة التي يجب اتباعها

<sup>٥٢</sup> الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1409هـ، 1989م) 9/2.

<sup>٥٣</sup> وقد ألف بعضهم في المسائل الخلافية بين الأشاعرة والماتريدية، خذ مثلا الحسن بن عبد الحسن المشهور بأبي عذبة في كتابه (الروضة البهية في ما بين الأشاعرة والماتريدية).

<sup>٥٤</sup> جلال، موسى: نشأة الأشعرية وتطورها: (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط 1، 1395هـ، 1975م) ص 15.

<sup>٥٥</sup> الشاطبي: الاعتصام ص 388.

للدخول في دائرة أهل السنة والجماعة، والنجاة من معاطب الفرق الخارجة عن هذا الإطار العام، إذن الجانب العقدي هو المعيار الأساس في تقويم الجماعات والمذاهب والأفراد، ومدى قربها وبعدها من مذهب أهل السنة والجماعة.

### أصول المنهج السلفي كما ذكرها الدكتور يوسف القرضاوي

- الاحتكام للنصوص المعصومة لا لأقوال الرجال.
- رد المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات.
- فهم الفروع والجزئيات في ضوء الأحوال والكليات.
- الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد، وذم الجمود والتقليد.
- الدعوة إلى الالتزام لا التسبب في مجال الأخلاق.
- الدعوة إلى التيسير لا التعسير في مجال الفقه.
- الدعوة إلى التبشير لا التنفير في مجال التوجيه.
- العناية بغرس اليقين لا بالجدل في مجال العقيدة.
- العناية بالاتباع في أمور الدين، والاختراع في أمور الدنيا<sup>٥٦</sup>.

أما مصطلح السلفية فإنه بهذا الرسم وهذه الصورة المعاصرة التي نلاحظها في المجتمعات المسلمة لم يستعمل في كتب القدامى من علماء الإسلام للإشارة إلى مذهب السلف، وقد غدا هذا المصطلح في العصر الحديث عبارة عن جماعات تدعو إلى مذهب السلف، مع الاختلاف بين اتجاهات تلك الجماعات، ولنذكر آراء بعض المعاصرين في تحديد هذا المصطلح، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله<sup>٥٧</sup>: "السلفية لا تعني على كل حال إلا مرحلة زمنية مرت، قصارى ما في الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصفها بالخيرية كما وصف كل عصر آت من بعد بأنه خير من الذي يليه، فإن قصدت بها جماعة إسلامية ذات منهج معين خاص بها يمسه به من يشاء ليصبح بذلك منتسبا إليها، منضويا

<sup>٥٦</sup> القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة (القاهرة، مكتبة وهبة، 2، 1411هـ، 1991م) ص96.

<sup>٥٧</sup> اغتيل الشيخ العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وصاحب هذه الأسطر ينقل كلامه، رحمه الله، وأخرى الله القتلة، ونشر آخر التحقيقات ومن خلال شريط فيديو مسرب أن الشيخ اغتالته شبيحة الأسد، وهو الذي يثلج به الصدر، والله أعلم.



تحت لوائها، فتلك إذن إحدى البدع المستحدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم<sup>٥٨</sup>.  
فللشيخ البوطي يرفض كون السلفية مذهباً ومنهجاً، بل هي في نظره مرحلة زمنية مضت، إلا  
أن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي<sup>٥٩</sup>، والدكتور مصطفى حلمي<sup>٦٠</sup>، والألماني هوفمان<sup>٦١</sup>  
يعدون السلفية منهجاً له قواعده وأصوله، أما الدكتور محسن عبد الحميد فإنه يقول بأن  
السلفية: "كان اصطلاحاً محدوداً استعمل في أزمان معينة استجابة لتحدي الانحرافات والبدع،  
واليوم انتفت الحاجة لاستعمال هذا المصطلح، نظراً لأن القضايا الخلافية في الجزئيات الغيبية  
لم تعد قائمة في حياتنا"<sup>٦٢</sup>. ويذهب أستاذنا الدكتور عرفان عبد الحميد رحمه الله إلى أن  
المنهج السلفي ظاهرة عامة في الفكر الديني في اليهودية والنصرانية والإسلام<sup>٦٣</sup>.

يرى الباحث أن هذا المصطلح أي السلفية سيئ استعماله، حيث نلاحظ في العصر  
الحديث أن السلفية أصبحت تعني المظاهر الشكلية والخارجية، والانغراق في الجزئيات والفرعيات،  
وأن الإسلام الحقيقي في منظومته المتكاملة هو الاهتمام والتركيز على تلك الجوانب الشكلية  
والمظهرية، وكذا التركيز على بعض المباحث العقدية المعينة لا صلة لها بالواقع المعاصر، ولا  
شك أن ابن تيمية كان على عكس ذلك، فقد عرفنا أنه قد كان منظومة متكاملة، لم يطغ جانب  
على آخر، بل كان ثمة توازن بين الجوانب المكونة - سلوكاً وخلقاً وزهداً وورعاً وفكراً وعقلاً -  
لها، لأن ابن تيمية يدرك أن السلف الصالح كانوا علماء الروح والقلوب وأطباء النفوس، كانوا  
زهاداً عباداً، وكانوا يدعون إلى أصول السنة التي تجمع المذاهب الإسلامية، وفي الوقت نفسه

---

<sup>٥٨</sup> البوطي، محمد سعيد رمضان: السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي (دمشق، دار الفكر، ط 2، 1411هـ، 1990م) ص 23.

<sup>٥٩</sup> القرضاوي، يوسف: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي (القاهرة، دار الصحوة، ط 1، 1408هـ، 1988م) ص 43.

<sup>٦٠</sup> حلمي، مصطفى: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي (الإسكندرية، دار الدعوة، ط 2)، 1413هـ، 1992م) ص 187.

<sup>٦١</sup> هوفمان، فليفرد: الإسلام هو البديل: ترجمة محمد مصطفى مازح (بيروت، ط 1، 1423هـ، 1993م) ص 114.

<sup>٦٢</sup> عبد الحميد، محسن: تجديد الفكر الإسلامي (الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 1416هـ، 1996م) ص 141.

<sup>٦٣</sup> مجلة التجديد (ماليزيا، الجامعة الإسلامية العالمية، السنة الثالثة، العدد الخامس، 1419هـ، 1999م) فتاح، عرفان عبد الحميد: المنهج السلفي في الأديان وقواعد الفلسفة الدينية ص 12 وما بعدها.

يهتمون بالمسائل التي تهم واقعهم المشهود. فالأولى التعويل على مصطلح أهل السنة والجماعة فإنه أوسع دائرة، وأدق معنى، وأدل دلالة على المقاصد الكلية للجانب العقدي في الإسلام.